الفصل الخامس

التفسير المادى للتاريخ

ـ مدخل .
ـ أصول المادية التاريخية .
ـ كارل ماركس ، والتفسير المادى للتاريخ .
ـ جورجى فالنتينوفيش بليخانوف (١٨٥٦ ـ ١٩١٨م) ، والحتمية التاريخية .
ـ أثر الفكر الماركسى فى مسار علم التاريخ .

obeikandl.com

obeikandl.com

التفسير المادى للتاريخ

. مـدخـل .

ولكن مثالية هيجل لا تعين الإنسان على تفسير الحركة الدائمة للتاريخ ، إنها ترضى الفيلسوف أو العقل الفلسفى الذى يفتنه منطق هيجل الدقيق ، وطريقته فى الجدل التى تكشف عن ذكاء خارق ، ودقة ذهن لا تجارى ، ولكننا عندما ننتهى من استيعاب مذهبه، ونفهم أن الفكر أو الفكرة أو العقل المطلق أو المثال، هو أساس كل موجود أو روحه بتعبير أدق، وأن المادة نفسها ليست إلا صورة من صور وجود العقل أو الفكر ، نجد أنفسنا قد خرجنا من ميدان التاريخ تماماً، وأننا عاجزون عن الاستفادة من هذا التفلسف الرفيع فى فهم أى حادث كبير من حوادث التاريخ. إن الفيلسوف يجد متعة كبرى عندما يجد هيجل يقول: **«إن التاريخ إنما هو تفتح ذلك العقل الكونى (المطلق) وانبساطه فى الزمان»** .. ولكن المؤرخ لا يدرى ماذا يفعل بهذه العبارة .

ولقد قال هيجل: «إن فلسفة التاريخ، هى التاريخ منظوراً إليه بذكاء.. وبالفعل يرى القارئ لكتاب هيجل فى فلسفة التاريخ أنه نظر إليه بذكاء، فألقى نظرات بالغة الصدق على حضارات العصور القديمة، ولكنه عجز تماماً عن إدراك العوامل التى أدت إلى سقوط روما مثلاً. وهذا هو الذى جعل رانكه ومدرسته يجهدون أنفسهم فى جمع الوثائق والمخلفات والمخطوطات ودراستها بعناية، باحثين عن العوامل التى حركت تاريخ البشر، شأنهم فى ذلك شأن المحقق الجنائى الذى يفحص كل صغيرة وكبيرة يعثر عليها فى مسرح الجريمة؛ بحثاً عن أدلة توصله إلى الحقيقة، ثم يعد ملفاً كاملاً للقضية، ويضعه بين يدى القاضى .. هذا الملف يصف ـ بغاية الدقة ـ كيف وقعت الجريمة، ولكنه فى الغالب لا يصل إلى مرتكبها الحقيقى، ويوقع القاضى بذلك فى حيرة كبرى، والقاضى هنا هو القارئ الذى يهلك وقته فى قراءة مؤلفات المؤرخين الذين ألفوا على مذهب رانكه، متأثرين بمثالية هيجل، وأثقلوا كتبهم بهوامش وإشارات إلى المراجع تزيد حجماً على النص نفسه، ولا يصل فى نهاية الأمر إلى حقيقة الواقعة التاريخية التى يقرأ عنها .

ولكن نفراً آخر من المؤرخين اتجهوا من أول الأمر اتجاهاً مادياً فى دراسة التاريخ، إذ إنهم اعتبروا الإنسان حيواناً كغيره يسعى لرزقه وحماية نفسه ، وجعلوا دأبهم البحث عن العوامل الداخلية التى تدفع الإنسان أو الجماعات البشرية إلى الحركة ، وكلها فى نظرهم عوامل مادية ، أى أنهم نظروا إلى التاريخ وكأنه فرع من فروع التاريخ الطبيعى، فكانت مؤلفاتهم أكثر واقعية وأقرب إلى حقيقة الواقع، وهؤلاء هم الماديون الذين تركوا جانباً العامل الروحى أو الدينى أو الفكرى ، ونظروا إلى الجانب المادى وحده، فعرفوا باسم الواحديين Monists، أو أصحاب المذهب الواحد، بخلاف المثاليين أو الثنائيين الذين فسروا حركة التاريخ على أنها بحث عن التوازن بين توجيه العقل المطلق الرفيع ونزعات البشر.

أ صول المادية التاريخية :

ولن نستطيع دراسة جميع أولئك الماديين ومذاهبهم ؛ فذلك مطلب يطول ، ثم إن الكثيرين منهم تمادوا فى هذا الاتجاه إلى درجة التبذل والسخف ؛ ولهذا فإننا سنكتفى بالظاهرين منهم، الذين يحددون معالم الطريق الذى وصل فى نهايته إلى كارل ماركس، وفريدريخ إنجلز، وفرديناند لاسال، وجورجى بليخانوف.

نبدأ عند سان سيمون Saint Simon الذى يعتبر من ألمع رجال الفكر الثورى فى فرنسا ، بل أوربا كلها . عاش سان سيمون فيما بين سنتى ١٧٦٠ ، ١٨٢٥م فهو من الممهدين للثورة الفرنسية وصانعى فلسفتها ، وهو يحسب فى العادة بين علماء الاجتماع أو الاقتصاديين . وهو نفسه كان يقول إن ميدانه هو الفيزياء الاجتماعية La Phisique sociale ، وكان يحسب أنه يستطيع بتحليل المجتمع تحليلاً فيزيائياً أن يجعل من التاريخ علماً يقينياً كغيره من العلوم الطبيعية ، ولكى يصل إلى ذلك عكف على دراسة تاريخ أوربا منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية. واهتدى إلى أن هذا التاريخ يلخص فى صراع متصل بين العاملين (من زراع وصناع) ويسميهم بالطبقة الثالثة Tiers - État ، والطبقتين الممتازتين اللتين تستفيدان من جهود العاملين، وهما طبقة النبلاء (الملوك ورجال الإقطاع) وطبقة رجال الدين أو الأكليروس. وقد أبدى سان سيمون ذكاءً بعيداً فى دراسته تلك،

وشرح لنا كيف أن الملوك أيدوا الطبقة الثالثة فى صراعهم مع أمراء الإقطاع خلال العصور الوسطى ، ومن مظاهر هذا التأييد تلك الحقوق التى منحوها لسكان المدن من التجار والصناع الذين كانوا يكرهون أمراء الإقطاع الذين كانوا يستغلونهم ، وكانت نتيجة ذلك ظهور المدن الصناعية الغنية Les Bourgs وسكانها (وهم البورجوازيون) Les Bourgeois ، الذين تزعموا الطبقة الثالثة فى نضالها مع أمراء الإقطاع، ثم قادوها بعد ذلك فى صراعها مع الملوك (الثورة الفرنسية وما تلاها).

وبذلك يكون سان سيمون أول من تنبه إلى أن صراع المصالح الاجتماعية، أو مصالح الطبقات الاجتماعية هو السبب الرئيسى فى الحركة التاريخية، وهو أول من تنبه إلى حرب الطبقات وحرب المصالح ودورها الكبير فى حركة التاريخ.

وفى هذا الطريق سار أحد نبهاء تلاميذ «سان سيمون» .. وهو أوجستان تييرى Augustin Jacques Nicolas Tnierry (١٧٩٥ ـ ١٨٥٦م)، الذى يعد من المؤرخين الرومانتيكيين؛ بسبب بلاغته وقدرته على صب رؤيته فى قالب درامى يذكرنا بإدوارد جيبون. وكان إلى جانب اهتمامه بالتاريخ والاجتماع قَصَّاصاً، ويعتبر كتابه عن «الغزو النورمانى لبريطانيا» من أحسن ما كتب فى الموضوع معتمداً على المراجع الأولى، وقد كلفه هذا الكتاب بصره. فما زال يضعف حتى كف بصره تماماً سنة (١٨٣٠م) ولكنه ظل نشيطاً فى عالم البحث التاريخى حتى توفى سنة (١٨٥٦م).

وقد عاش تييرى بعد أحداث الثورة الفرنسية وتحمس لمبادئها تحمساً شديداً واستهواه نظام الكومون La Commune Parisienne، أى : الحكومة المحلية الاشتراكية التى قامت فى العاصمة الفرنسية فى أثناء الثورة، وهى أول تجربة فى تنظيم الحكم على أساس اشتراكى متطرف، فأخذ يدرس تاريخ جمهور الناس، أو ما يسمى بالطبقة الثالثة Tiers-État، وألَّف فى ذلك كتاباً من أربعة مجلدات سماه «مجموعة وثائق غير منشورة عن تاريخ الطبقة الثالثة (١٨٥٠ ـ ١٨٧٠م): Recueil des Monuments inédits de L'histoire du Tiers - État» فَسَّرَ فيه

التاريخ على أنه صراع بين الطبقات ومصالحها، وقال فيه إن الطبقة العاملة هى أساس الإنتاج، ومصدر الثروة، وإنها كانت دائماً فى كفاح مع الطبقات القوية المستبدة للوصول إلى حقوقها، وهاجم الفكرة القائلة بأن التاريخ من صنع الأبطال وعظماء الرجال ، وتساءل: «أتريدون أن تعلموا على وجه الصحة من الذى أنشأ مؤسسة ما، أو من الذى وضع خطة مشروع عظيم؟ إذن: فابحثوا عن الذين احتاجوا إليه بالفعل، أولئك هم أصحاب فكرته الأولى وإرادة العمل من أجله، وهم أصحاب الفضل الأكبر فى تحقيقه». وعلى هذا الأساس لا يكون وليام الفاتح بطل الغزو النورمانى لإنجلترا، وإنما الأبطال الحقيقيون هم الزراع النورمان الفقراء فى شمال غربى فرنسا، الذين دفعتهم حاجتهم إلى الأرض إلى الاندفاع نحو إنجلترا، باحثين عن مجال حيوى فسيح. وهنا فقط تصدى وليام لقيادتهم .

وشبيه بهذا ما نقرأه عند معاصر تييرى، وهو فرانسوا مينييه François Auguste-Marie Mignet (١٧٩٦ـ ١٨٨٤م) الذى كان مؤرخاً وأمين محفوظات، وصحفياً ثورياً مناضلاً، وكان زميلاً وصديقاً لأدولف تيير Adolphe Thiers الذى أصبح فيما بعد رئيساً للجمهورية الفرنسية. كتب مينييه كثيراً جداً، ولكن تأريخه للثورة الفرنسية الذى صدر فى مجلدين سنة ١٨٢٤م يفسرها على أنها صراع طبقات، صراع بين العاملين المنتجين والطبقتين المستفيدتين من ثمرات جهود العاملين، فهو يقول مثلاً عن دستور سنة ١٧٩١م الذى أصدرته حكومة الثورة الفرنسية: «كان هذا الدستور من صنع الطبقة الوسطى La Bourgeoisie، التى كانت أقوى الطبقات فى ذلك الحين، إذ إن القوة السائدة ـ كما هو معروف ـ تسيطر على المؤسسات والنظم، وكان يوم ١٠ أغسطس انتفاضة جماهير الناس ضد هذه الطبقة الوسطى وضد الملكية الدستورية، كما كان يوم ١٤ يوليو انتفاضة الطبقة الوسطى ضد الطبقات المتميزة وضد الحكم الملكى المطلق».

وهذه العبارة تهمنا هنا بصفة خاصة لأنها ترينا أن كارل ماركس لم يكن أول من تنبه إلى الدور الحاسم لحرب الطبقات وصراعها على السلطان فى توجيه التاريخ.

obeikandi.com

فمن المعروف أن الثورة الفرنسية التى قامت فى ١٤ يوليو ١٧٨٩م قادها رجال الطبقة الوسطى، الذين كانوا قد أثروا وتمولوا فى عهود الملكية، وعندما تكدست ثرواتهم شعروا بقوتهم وتطلعوا للسلطان. فنادوا بالثورة على الملكية واستخدموا جماهير الناس فى ذلك، فلما انتصرت الثورة تربع رجال هذه الطبقة الوسطى ـ أى: البورجوازيون ـ فى دست الحكم وأصدروا دستور ١٧٩١م الذى يؤمِّن أموالهم وامتيازات طبقتهم، وأنزلوا بجمهور الناس مظالم شتى.

وكان هذا هو الذى دفع بجماهير الناس فى باريس بالثورة على البورجوازية المتحكمة، وإنشاء «الحكومة الاشتراكية المتطرفة» La Commune فى ١٠ أغسطس ١٧٩٢م وإلغاء دستور ١٧٩١م ومواصلة الثورة إلى نهايتها.

كارل ماركس والتفسير المادى للتاريخ :

لم يكن كارل ماركس ـ إذن ـ أول من تنبه إلى أن التاريخ لا يسيِّره العقل المطلق وحده، ولا يصنعه عظماء الرجال بعبقرياتهم ، وإنما تصنعه عملية تطور اجتماعى داخلى فى كيان كل أمة، وصراع طبقات للوصول إلى الحكم والسلطان، وأن العامل الرئيسى الذى يقرر المصير فى النهاية هو الإنتاج، هو الثروة ، وأن من يملك وسائل الإنتاج يستمتع بثمراته ويفرض سلطانه. والذى فعله ماركس أنه نص على العامل الاقتصادى الاجتماعى فى تحريك التاريخ نصاً شديداً، وصاغ منه نظرية متكاملة الأطراف.

وكارل هاينريخ ماركس Karl Heinrich Marx (١٨١٨ـ١٨٨٣م) كان ألمانياً من أصل يهودى ، وقد تنصر والده على المذهب البروتستانتى. ونشأ أولاده كلهم على هذا المذهب، ولكن كارل ماركس يبدو لنا من أول الأمر عريق الإلحاد. درس الفلسفة والتاريخ فى جامعتى بون وبرلين، وتأثر تأثراً عميقاً بآراء فلهلم فريدريخ هيجل ، وبعد حصوله على الدكتوراه من جامعة «يينا» كان يستطيع اتخاذ السلك الجامعى، ولكنه خُلق مقاتلاً، فاتخذ الصحافة عملاً، وأصبح رئيس تحرير جريدة الراين Rheinische Zeitung فى كولونيا، ولكنه لم يكن صحفى أخبار، بل كان صحفىَّ رأيٍ، وصحافة الرأى قلّما تؤتى صاحبها مالاً، ولهذا ظل

كارل ماركس حياته كلها فقيراً، بل مرت بـه فترات من الفقر المدقع، وكان يعتمد دائماً على المعاونات المالية التى ظل يقدمها له ـ طوال عمره كله ـ صديقه وزميله **فريدريخ إنجلز** Friederich Engels .. وهو قسيمـه فى معظم أفكاره ومـؤلفاته وكفاحه .

وقد ظهرت آراء ماركس فى التفسير المادى للتاريخ فى رسالة صغيرة نشرها سنة ١٨٤٧م فى بروكسل بعنوان «بؤس الفلسفة Misère de la Philosophie» رداً على رسالة بعنوان «فلسـفة البؤس Philosophie de la misère»، كتبها فيلسوف مثالى تقليدى هو: ب. ج. برودون P. J. Proudon الذى كان يعتبر كـبير فلاسفة ذلك العـصر. وفى سنة ١٨٤٨م نشـر ماركـس فى بروكسل أيضـاً بالاشتـراك مع صاحبه إنجلز، بيـان الحزب الشيوعى Manifest der kommunistischen Partei وهو دعوة صريحة للعمال فى العالم كله إلى الثورة وانتزاع السلطة، وإنشاء الدولة الاشتراكية أو الشيوعية، وتجلى بوضوح أن ماركس لم يكن فيلسوفاً من أصحاب الرأى والقلم فحسب، بل داعـية لانقلاب سياسى اجتمـاعى كبير، ودليل ذلك أنه أنشـأ سـنة ١٨٦٨م ـ فـى أثـناء وجـوده فى لـندن ـ الجـمعـية الدولـيـة للعـمال: International Workingmen's Association التى تعـرف عـادة بـاسم «الدولـيـة الأولى The First International» ، تمييزاً لها عن جمعيتى العمال الدوليتين الثانية والثالثة اللتين قامتا على يد لينين وأتباعه فيما بعد.

وكان كارل ماركس يشرح فى كتبه طريقة إخراج أفكاره إلى حيز التنفيذ، أى: طريقة إحداث الثورة الاشتراكـية أو الشيوعية، ولهذا تعتبر كل كـتبه أسساً للعمل عند أتباعـه ، وأهمها بالنسبـة لموضوعنا هنا: «صـراعات الطبقات فى فـرنسا من ١٨٤٨ إلى ١٨٥٠م» (نشر فيما بين سنتى ١٨٥٠و ١٨٥٩م Klassenkaempfe in Frankeich von 1848 bis 1850، و«فى نقد الاقتصـاد السياسى» Zur kritik der Politischen Oekonomie (١٨٥٩م)، ثم كـتـاب «رأس المـال Das Kapital» الشهـير الذى ظهر جزؤه الأول سنة ١٨٦٧م ، ونشـر الجزءان الثانى والثـالث بعد موته فى سنتى ١٨٨٥و١٨٩٤م ، وفى هذا الكتاب يقـدم ماركس نظرية كاملة عن طبيـعة رأس المال والنظام الرأسـمالى، ويظهـر كيف أنه نظام هدّام يخرِّب نفسه بنفسه.. وسنتحدث عن هذه الآراء فى الفقرة التالية.

ويجهل كثير من الناس أن ماركس الذى اشتهر بالدفاع عن الحرية ـ وحرية المستضعفين بصورة خاصة ـ كان يؤيد الإمبراطورية البريطانية ويدعو إلى تقويتها وتثبيت أقدامها فى المستعمرات، ويذهب أنصاره إلى أنه كان يقول بذلك لأنه كان يكره روسيا القيصرية، ويرى أنها ألد أعداء الحرية فى أوربا، وأنه كان يرى فى مساندة الإمبريالية الإنجليزية إضعافاً لروسيا القيصرية. وهذا غير صحيح، والصحيح الذى يجهله الكثيرون أنه كان برغم تظاهره بالإلحاد يهودياً فى الصميم، وكانت إنجلترا إذ ذاك موئل اليهود وسندهم الأكبر إلى جانب هولندا. وذلك قبل أن ينتقل مركز الثقل اليهودى بصورة نهائية إلى الولايات المتحدة الأمريكية، بل كان كارل ماركس صهيونياً، وله كتاب لا يذكر إلا فى النادر اسمه «الدولة اليهودية Der Judische Staat» هو الأصل الذى استلهمه **تيودور هيرتسل** عندما ألف كتابه الذى يحمل نفس الاسم.

وينبغى الحذر عند الكلام على آراء ماركس؛ لأن الكثير مما ينسب إليه ليس له، وإنما وضعه الشيوعيون فيما بعد ونسبوه إليه. وجدير بالذكر أن أمر ماركس لم يشتهر فى عصره، بل غطى عليه فى فرنسا فى ميدان التاريخ وفلسفته **برودون** الذى أشرنا إليه، وفى ألمانيا **فرديناند لاسال** Ferdinand Lasalle. ولم يكن لاسال خصماً لماركس، بل شارحاً لآرائه، ولم تشتهر آراء ماركس ومؤلفاته إلا على يد الثوريين الروس، وخاصة لينين، الذى وجد فى كتابات ماركس مصدراً لإلهامه، وأساساً فكرياً للثورة الروسية الشاملة التى كان يدعو لها. وسنحاول أن نعرض هنا أهم آراء ماركس فيما يتعلق بموضوعنا وهو التاريخ وتفاسيره.

يرى ماركس أن التاريخ تحكمه قوانين يدركها العقل الإنسانى، وهذه القوانين حتمية، أى أنها تفرض نفسها لأنها ناتجة عن حركة التاريخ نفسه، وإذا أدرك الإنسان هذه القوانين استطاع أن يقرر صورة مستقبل الجماعة الإنسانية، وهذه القوانين ليست مثل قوانين العلوم البحتة، وإنما هى حقائق متعلقة بطبيعة العمل والإنتاج، وطريقة توزيع الثروة بين المواطنين، فإن الثروة تنتج عن العمل، والعمل يقوم به من يعملون بأيديهم أو بعلمهم ومواهبهم، فلابد أن تعود ثمرته

حتماً على أولئك العاملين أنفسهم، فإذا استولى عليها منهم غير العاملين من أصحاب السلطة أو الطبقات غير المنتجة كالأشراف ورجال الدين والوسطاء التجاريين والمضاربين، اختل توازن المجتمع وأصبح من الضرورى إعادة التوازن إليه، إما عن طريق ثورة هادئة تتم شيئاً فشيئاً بفضل إدراك أصحاب السلطان لطبيعة الأشياء (كما فى إنجلترا)، أو ثورة عنيفة تحطم نظام المجتمع القائم وتقيم محله نظاماً جديداً.

وإذا لم تنجح الثورة الأولى فى الوصول إلى النظام السليم الذى يشترك أعضاؤه جميعاً فى الإنتاج، ويستمتعون معاً بثمرات الإنتاج فلا ينال إنسان إلا بحسب عمله، ولا يصيب إلا حاجته دون زيادة، فلا مفر من ثورة جديدة كما حدث فى الثورة الفرنسية الأولى، التى جنى ثمراتها البورجوازيون من مياسير أهل الحرف والصناعات والمتاجر، وهم فى رأى ماركس ليسوا المنتجين الأصليين، بل مجرد وسطاء، فقامت بعد ذلك الثورات المتوالية على النظام البورجوازى: ثورة الكومون سنة ١٧٩٢م ثم ثورة ١٨٤٨م التى أسقطت الملكية الثانية: ملكية لويس فيليب وما تلاها من أحداث، أى أن الثورة عند ماركس ينبغى أن تكون دائمة ومتجددة حتى بعد تحقق غاياتها الأولى.

وقد تولت شرح تلك النظرية الحتمية **روزا لوكسمبرج** (١٨٧٠ـ ١٩١٩م) Rosa Luxemburg، وهى امرأة بولندية يهودية ذات نزوع ثورى مخرِّب، ونشاط عجيب وذهن وقّاد، وإليها يرجع جانب كبير من الفضل فى دفع الثورة الشيوعية إلى الأمام، وهى لم تأخذ المذهب الشيوعى عن ماركس وإنما عن كبار تلاميذه من الروس من أمثال **ج. ف. بليخانوف** G. V. Plekhanov، **وبافل أكسلرود** Pavel Axelrod ، **وفيرا تسازوليخ** Vera Zasulich وهم من أكابر شيوخ لينين. وكثير من الآراء التى تنسب إلى ماركس يرجع إلى روزا لوكسمبرج، وخاصة فى كتابها المسمى: « تراكم رأس المال Die akkumulation des Kapitals ».

وقد قال بعض الماركسيين الحتميين بأنه إذا كان هذا التغيير حتمياً، أى: لا مفر منه، فلماذا يتعين على العمال القيام بالثورة وتعريض أنفسهم للخطر للإسراع به، ويرد الماركسيون المناضلون Militant Marxists على ذلك بالقول بأن

التضحيات التى يقدمها العمال عند القيام بثورتهم أقل بكثير من خسائرهم إذا تركت العملية تتم من تلقاء نفسها ببطء. وهنا نقطة من نقط الخلاف بين الماركسيين.

ويقول ماركس: إن الأحوال أو الأوضاع الاقتصادية لأىّ جماعة هى التى تحدد صورة نظامها وكل مظاهر حضارتها، فإذا أردنا أن نفهم نظام أى مجتمع ونظامه السياسى، أو حتى طبيعة عقيدته الدينية وإنتاجه الفنى والفكرى، فلننظر أولاً إلى نظامه الاقتصادى. وأساس النظام الاقتصادى هو الإنتاج ونوعه وأساليبه وطريقة استعمال أو توزيع ثمراته، والإنتاج نفسه ـ سواء أكان يدوياً بدائياً، أم آلياً ـ متطور دائماً على مستوى واحد وأسلوب واحد، فهو يتطور دائماً، أو على الأقل متطور باستمرار: أدواته وصورته وطريقة توزيعه. وهذا التطور للإنتاج ـ أى: للوضع الاقتصادى ـ مستمر وحتمى مهما كان بطيئاً، وتطوره هذا هو الذى ينتج عنه تطور المجتمع الذى يقوم عليه وكل نظمه Institutions وقوانينه، وما يقوم على ذلك كله من أفكار وعقائد وآداب وفنون، وكل ما يسميه الماركسيون: البناء الخارجى أو العلوى للمجتمع Ue ber bau-Super Structure فى الألمانية والإنجليزية .. وسنتحدث عن ذلك فيما بعد.

ويقول ماركس فى شرح نظريته تلك: «إن الناس فى أثناء قيامهم بإنتاجهم لمعيشتهم يقيمون فيما بينهم علاقات معينة ضرورية لهم، ولا مفر لهم من إقامتها؛ لأنها مرتبطة أشد الارتباط بإنتاجهم نفسه، وعلاقات الإنتاج هذه تطابق درجة معينة من تطور قواهم الإنتاجية المادية».

ومجموع علاقات الإنتاج هذه يشكل صورة البناء الاقتصادى للمجتمع ، أى أنه الأساس الواقعى الذى يقوم عليه الظاهر أو البناء الخارجى أو العلوى Super Structure الذى ذكرناه ، وهذا البناء الخارجى العلوى يشمل القوانين والنظام السياسى، وأشكالاً معينة من الوعى الاجتماعى التى تسود فى أى مجتمع من المجتمعات. ومعنى ذلك أن الإنتاج المادى لجماعة ما هو الذى يحدد صورة نظامها الاجتماعى والسياسى والفكرى بصورة عامة، فليس وعى الناس هو الذى يحدد صورة حياتهم ومستواهم الاجتماعى، بل العكس هو الصحيح .. صورة حياة الناس ومستواهم الاجتماعى هما اللذان يحددان درجة وعيهم.

وعندما تبلغ الطبقة المنتجة فى الجماعة درجة من القوة فى تطورها يزداد وعى أفرادها بأحوالهم وحقوقهم، ويحفزهم هذا الوعى إلى الدخول فى نزاع مع الطبقة الحاكمة، إذا كانت هذه الطبقة الحاكمة تستولى على معظم ثمرات الإنتاج بمقتضى التشريعات أو التقاليد التى وضعتها ؛ لتضمن استمرار احتكارها لهذه الثمرات، وفى العادة تكون هذه الطبقة المالكة لأحسن الأراضى والعقارات والأموال ومنابع الثروة، ومحصّنة لهذه الملكية بتشريعات تمكنها من إحكام قبضتها على الأراضى ومنابع الثروة والعقارات، وحصرها فى أيدى أفرادها، ولابد فى هذه الحالة من وقوع الصراع بين قوى الإنتاج وتنظيمات الملكية السائدة؛ لأن هذه التنظيمات إنما هى فى الحقيقة قيود تكبل الطبقة المنتجة وتعرقل تطورها، وتحول بينها وبين الاستفادة من ثمرات جهدها.

وهنا يبدأ عهد ثورات اجتماعية وسياسية؛ لأن تغير الأساس الاقتصادى يزعزع كل البناء العلوى الهائل (السوبر ستراكتشر) بكل نظمه وقوانينه وأخلاقياته، على درجات مختلفة من العنف والسرعة.

وعند دراسة هذه التغيرات أو الانقلابات أو الثورات، ينبغى دائماً التمييز بين أساس الموضوع ومظهره ؛ فأما الأساس هنا فهو التغير المادى للأوضاع الاقتصادية للإنتاج، وهذا التغير المادى حقيقى يمكن تقديره بدقة علمية، وأما المظهر فهو الأشكال القانونية والأوضاع السياسية والدينية والفكرية والفلسفية، وهذه الأشكال الظاهرية هى التى تسمى فى مجموعها بأيديولوجية النظام القائم، وهى ـ كما رأيت ـ نتيجة لا سبب، وطبقة علوية خارجية Super Structure وليست أساساً، ولكننا تعودنا على أن نعتبرها الأساس، ونعطيها أكبر جانب من الأهمية، والسبب فى ذلك أن المفكرين والفلاسفة اهتموا بتركيز الضوء عليها؛ لأنهم هم أنفسهم فى جملتها، فهيجل مثلاً وغيره من المثاليين قالوا إن الفكر هو الذى يوجه التاريخ؛ لأنهم هم أنفسهم كانوا جزءاً من النظام القائم، وكانوا قادة الفكر فيه، وتفكيرهم كله تأييد له ولأوضاعه، ومن العسير عليهم أن يتصوروا أنهم فى جملة الصورة الخارجية لنظام الجماعة ، ورجال القانون يتصورون أن قوانينهم هى

أساس سلامة المجتمع واستقراره، ويفوتهم أن هذه القوانين نفسها لم توضع إلا لصيانة شكل معين للمجتمع، حتى عيوب ذلك المجتمع ونقائصه تحميها هذه القوانين، وكل من يحاول إصلاح هذه العيوب يعتبر متعدياً على نظام المجتمع ـ حسب رأيهم ـ ولابد أن يقع تحت طائلة القانون، ومن هنا فمن الممكن جداً أن تكون مجموعة الأفكار المتداولة بين المفكرين وأهل القانون والنظام مليئة بالأخطاء، ولكنهم يدافعون عنها فى إصرار، ودفاعهم هذا لا يمكن أن نقبله على أنه حق، لأنك لا تستطيع أن تحكم على إنسان بحسب ما يقوله عن نفسه.

وعندما تتغير أوضاع الإنتاج تغيراً بعيد المدى ، يظهر ـ بوضوح ـ التناقض بين الحقيقة والمظهر، بين الأساس والبناء القائم فوقه .. ومن المعروف أن هذا التناقض لا يظهر بصورة حاسمة إلا إذا تحركت الطبقات المنتجة لتطالب بتغيير الأوضاع. وهنا تظهر المشاكل الاجتماعية ، وهذه المشاكل الاجتماعية الكبيرة لا تظهر إلا عندما تكون الظروف المادية كلها قد تهيأت، أو آخذة فى التهيؤ .

ويذهب كارل ماركس إلى أن أوضاع الإنتاج وعلاقاته هى التى تحدد جميع العلاقات الأخرى التى تقوم بين الناس فى مجتمع ما. وخاصة أوضاع الملكية؛ ملكية الأرض والعقار والمال والمنقولات، فإذا كان المنتج يحصل على أكبر جانب من ثمرة إنتاجه لم تكن هناك وسيلة لتكديس الأموال فى يد قلة من الناس، ولكن ذلك يحدث عندما تستولى طبقة الأقوياء والوسطاء على ثمرات الإنتاج، وتكدس الأموال يظهر حتماً فى صورة ملكيات كبيرة أو صغيرة، ففى مجتمع الصيادين ـ حيث يتقاسم الصيادون لحم الفريسة التى صادوها معاً ـ فإنه لا يبقى لرئيس القبيلة فائض من نصيبه يمكن تحويله مع الزمن إلى ملكية، أما فى المجتمعات الزراعية فإن السلطة الحاكمة تعطى قطعاً كبيرة أو صغيرة من الأرض لأنصارها، وهذه الملكية لا قيمة لها إلا إذا وجد الفلاح أو الزارع الذى يستطيع زراعة الأرض وإخراج ثمراتها، وما دام الفلاح فى حاجة إلى أرض يزرعها فهو مضطر إلى التفاهم مع مالك الأرض على أن يسمح له بزراعتها، وهو فى الغالب يتفاوض فردياً فيضطر إلى قبول شروط المالك، وهى فى العادة لا تعطى الزارع

إلا الكفاف، والباقى يتوزع بين صاحب الأرض والوسطاء بينه وبين الفلاح المفرد الصغير، وشيئاً فشيئاً يقل نصيب الفلاح من ثمرة إنتاجه، ويزداد تبعاً لذلك نصيب الآخرين، فتزداد مساحات الملكيات وثمراتها وتسن القوانين، وتوضع النظم لحماية هذه الملكيات، ولقد صدق جيزو عندما قال: **«إن أوضاع الملكية فى أى مجتمع تشرح لنا طريقة تكوينه»**.

ويطبق الماركسيون هذا القول على الصناعة، فيقولون: إن الصانع الذى يوفق فى صناعته، ويتمكن من جمع رأس مال يمكنه من توسيع نطاق صناعته، يفرض شروطه على العامل المفرد الذى يدخل فى خدمته، وكما أن مالك الأرض الزراعية يجتهد دائماً فى أن يحصل من المزارع الصغير على أكبر قدر من ثمرة عمله، فكذلك صاحب المصنع، فنصيب العامل دائماً أقل، فى حين أن رأس مال صاحب المصنع فى زيادة دائماً وفى وقت ما ينعدم التوازن بين المنتج والمتمتع بثمرة الإنتاج، ولا سبيل فى هذه الحالة أمام العمال ـ ليعيدوا هذا التوازن إلى حد معقول ـ إلا أن يتفاهموا جماعياً مع صاحب رأس المال، وما دام عملهم هو أساس ثروته فهو مضطر إلى التفاهم معهم، وهذا هو أساس البيان أو«المانيفستو الشيوعى» الذى نشره ماركس وإنجلز سنة ١٨٤٨م وبدآه بقولهما: يا عمال العالم اتحدوا.

ومعنى هذا أن ماركس وأتباعه يقولون إن الظروف المادية للمجتمعات هى التى تحرك التاريخ، فالثورات والانقلابات السياسية، سواء أكانت عنيفة سريعة، أم هادئة بطيئة، ترجع فى نهاية الأمر إلى أوضاع العمل والإنتاج والملكية، وسلامة هذه الأوضاع أو عدم سلامتها هى التى تعيِّن قوة النظام القائم عليها أو ضعفه. وقوته تحول دون العدوان الخارجى عليه، وضعفه يشجع الآخرين على العدوان عليه، أى أن الأوضاع المادية للمجتمعات هى فى النهاية من أكبر أسباب الحروب،وبعبارة مختصرة : الأوضاع المادية، وأحوال الملكية، وصراع الطبقات بعضها مع بعض، هى العوامل التى تدفع حركة التاريخ كله، وهذا هو ما يسمى بالتفسير المادى للتاريخ.

ولا يقول ماركس بأن الأفكار لا دور لها إطلاقاً فى توجيه التاريخ ، بل هو

يعترف بقوتها وفاعليتها، ولكنه ينكر أنها عوامل مستقلة بنفسها، وإنما هى ناتجة عن الأوضاع المادية، وهى فى رأيه وسيطة بين التغير الاقتصادى والمظهر الخارجى للحوادث. وفى هذه الحدود يقول ماركس: **«إن الأفكار يمكن أن تكون ذات قوة كبيرة»**. و لا يقول ماركس أن الإنسان لا تحركه إلا الدوافع المادية الأنانية، فهو يعترف بوجود عواطف الإيثار والحماس الدينى، والوطنية وغيرها من الخصال المثالية، ولكنه يردها بدورها إلى الأوضاع الاقتصادية وأثرها المباشر أو غير المباشر على العقل الإنسانى .

وهو يقول: إن التطور الصناعى والفنى يؤدى بطبيعته إلى إنشاء مصانع أكبر فأكبر، وإن ذلك سيستلزم بالضرورة رءوس أموال أضخم مع الزمن، وكلما زاد حجم المنشأة الصناعية تضاءل حجم العامل بالنسبة لرأس المال الضخم وأصحابه، وهذا يؤدى إلى استبداد رأس المال بالعمال، ومن هنا تبدأ مشاكل الصراع بين العمال وأصحاب رءوس الأموال، وهو صراع يحول بين الجماعة والاستقرار المنشود، ويعرض مصالح العمال للخطر، ولا حل فى هذه الحالة إلا أن تضع الجماعة يدها على مصادر الإنتاج وإدارتها جماعياً ليعود خيرها كله على الجميع.

وقد لاحظ معظم نقاد التاريخ والاقتصاد أن هناك نقطة كبيرة فى تلك النظرية، وهى غموض مفهوم « التغير أو التحول الاقتصادى» The Economic Change[1] التى جعلها ماركس أساساً لكل فلسفته التاريخية الاجتماعية، وجدير بالذكر أنه لم يقدم فى أى كتاب من كتبه عرضاً واضحاً متكاملاً لتفسيره المادى للتاريخ، إنما جاء هذا العرض مفرقاً ومتناثراً فى مؤلفاته الكثيرة. وقد اجتهد إنجلز وماركس معاً فى لمّ أطراف هذه النظرية فى رسالة كتباها فى الرد على ناقد لثورتهما يسمى **أويجن دورنج** Herr Eugen Duerings، ولكن حتى هنا لا نجد ذلك العرض المتكامل الذى يتحدث عنه الماركسيون فى حماسهم للتفسير المادى للتاريخ.

---

(١) المصطلح فى الأصول الألمانية لكتابات ماركس هو: Die Oekonomische Wandlung .

والحق أننا لا نستطيع الفصل بين الإنتاج والفكر فى مجتمع ما، ولا يمكن أن نقول إن صورة الإنتاج هى التى تعطى الصورة الظاهرة لنظام المجتمع وفكره وذوقه، أو ما يسميه الماركسيون بالبناء العلوى Super Structure[1]؛ لأن الإنتاج نفسه يخضع فى جانب كبير منه لهذا البناء العلوى الظاهر للمجتمع، وأكثر من نصف الإنتاج فى أى مجتمع معاصر يوجه لإرضاء مطالب نفسية واجتماعية وذوقية وفنية للمجتمع إلى جانب ضرورياته؛ فإن الإنتاج لا يقتصر على الزراعة وصناعة الضروريات، بل يشمل أيضاً الأقمشة الغالية الفاخرة، والسيارات الفارهة، والأثاث النفيس ، والعطور الغالية، وأدوات التجميل، وملابس السيدات، والخمور والسجائر، وغير ذلك مما يدخل ضمن الكماليات، ولكنه يصنع خاصة لإرضاء مزاج وذوق أهل الطبقة الظاهرة الخارجية ـ أى: السوبر ستراكشر ـ وهنا يتجلى لنا كيف أن هذا الظاهر الخارجى أو البناء العلوى للمجتمع هو نفسه يعتبر من أساسيات الإنتاج .

ولكن لا شك أن تطور الإنتاج عامل حاسم فى تطوير الجماعات وسير تاريخها، وحتى لو سلمنا أنه فى أساسه يعتمد على القدرة البدنية والتقدم التكنولوجى، فلابد أن نسلِّم بأنه مستمر ولا يمكن إيقافه، صحيح أنه فى كثير من الأحيان تقف النظم والقوانين والمصلحة المتشابكة لأهل نظام معين سائد فى وجه هذا التطور، ولكن مع تقدم العلوم والتكنولوجيا يصبح الإنتاج المادى قوة لا تقهر، وهنا نضع يدنا على الجانب الصحيح من النظرية الماركسية، وفى أيامنا هذه نلاحظ أن تطور الإنتاج ومستواه وكميته وتنوعه هو العامل الحاسم فى سير مجتمعنا الحاضر، **فالأمم التى تتميز بإنتاجها الصناعى والزراعى الجيد الوافر هى التى تحكم الدنيا .**

إن التفسير الاقتصادى للتاريخ لا ينطبق بصورة ملموسة إلا على عصرنا هذا الذى تقدمت فيه العلوم والتكنولوجيا إلى درجة جعلت الاقتصاد (وأساسه الإنتاج) الشغل الشاغل للمجتمع كله، ولكن لا يمكن القول مثلاً بأن ذلك العامل

---

(١) فى الألمانية: Ueberbau .

كان هو العامل الحاسم فى توجيه التاريخ فى العصور الوسطى؛ لأن رجال الدين والمفكرين والملوك كانوا هم الذين يحركون التاريخ فى تلك العصور، ثم إن الذين خرجوا بالغرب من ركود العصور الوسطى، وفتحوا له آفاق النهضة والاكتشافات والتقدم الفكرى والعلمى كانوا المفكرين وأصحاب الآراء والنظريات، لا العمال أو الزراع. وهنا يبدو لنا جانب ضعيف من جوانب التفسير المادى للتاريخ. ولكننا ينبغى أن نسلِّم بأن تمسك الماركسيين بأهمية الإنتاج أفاد الطبقات العاملة ، ورفع مستواها، وفتح لها أبواب المشاركة فى الحكم، وهذه خطوة إلى الأمام لا شك فيها، وهى الجانب الإيجابى الذى لا ينازع فيه فى آراء الماركسيين.

ولابد مع ذلك أن نلاحظ أنه لا علاقة بهذه الآراء الماركسية التى تسمى فى مجموعها أحياناً بالمادية التاريخية Historical Materialism، لا علاقة لها بما يسمى فى الفلسفة بالمادية الفلسفية Philosophical Materialism.

ويتجه الماركسيون فى إثبات صحة نظرياتهم تلك إلى استخدام طراز خاص من الجدل يسمى بالجدلية المادية Material Dialectic ، وهو جدل يعتمد فى طريقته على الأسلوب المنطقى المحكم الذى وضعه هيجل والمثاليون، ولكنهم يستخدمونه لتحقيق أهدافهم الخاصة ، ويقول هذا الجدل الماركسى : إن كل التقدم التاريخى يتم عن طريق صراعات شاملة بين أسس قديمة وظواهر جديدة للتنظيم الاجتماعى. وهم يرون أن الصراع ينبغى أن يكون شاملاً وعنيفاً ، وأن الإصلاحات الجزئية للنظم العتيقة تعوق عملية التحول التاريخى وأحياناً تجهضها.

وكذلك يرون أن التطور التدريجى لا يمكن أن يؤدى إلى نتيجة حاسمة، وأن الإصلاحات لا تكون لها فائدة، إلا إذا أقحمت فى بدن النظام القديم على نحو يسرع بموته. وحيث إن الماركسيين لا يوافقون على الإصلاحات التدريجية التى لا تقضى على النظام القديم وتزيله من الوجود وتنظف الأرض ـ كما يقولون ـ للزرع الجديد ، بل تكتفى بتحويره أو تعديله ، فإن الطريق الوحيد للتغيير الشامل عندهم هى الثورة ، وهم يقولون إن الآلام والتضحيات التى تسببها الثورات ، هى الثمن الذى لابد من أدائه فى مقابل الوصول إلى أى تقدم.

ومن الغريب أن يصر الماركسيون على ذلك مع علمهم بأن بلاداً كثيرة تم فيها التغيير الشامل، والانتقال من القديم إلى الجديد عن طريق عملية إصلاح تدريجية طويلة المدى، وأكبر مثال لذلك: إنجلترا واليابان .

ومن تفاصيل النظرية الماركسية التى لا زالت موضع الجدل بين مفكرى الماركسية أنفسهم ، هو قولهم بأنه لا توجد مصالح مشتركة بين الطبقات المتصارعة ، ويرى ماركس أن كل مذهب من مذاهب التنظيم الاجتماعى تمثله طبقة معينة ، فالنظام الإقطاعى يمثله الملوك والأشراف ، والنظام الرأسمالى يمثله المقاولون وأصحاب الأعمال والسماسرة والوسطاء ، والنظام الاشتراكى يمثله العمال ، ولا توجد مصلحة مشتركة بين هذه الطبقات ، ومن ثم فهى لا تستطيع أن تتعايش ، والصراع بينها ينبغى أن يكون حاسم النتيجة ، فلا يتوقف حتى تموت الطبقة القديمة تماماً ، وهم يرون أن هذا الصراع لا يمكن أن يأخذ صورة ديمقراطية،أى:لا يمكن أن يعتمد على الانتخابات أو الاستفتاءات ؛ لأن هذه القواعد الديمقراطية تنص على ضرورة احترام آراء الخصوم ، والخصوم فى رأى الديالكتيكيين الماركسيين لا احترام لهم ، بل ينبغى ألا يكون لهم وجود . وهم يرون أن انتصار النظام الجديد على القديم ينبغى أن يتبعه القضاء على الخصوم بكل أنواع العنف، وفرض ما يسمى بالحكم المطلق للطبقة العاملة ، أو دكتاتورية البروليتاريا Dictatorship of the Proletariat ويستمر هذا طوال فترة الانتقال من النظام الرأسمالى إلى الشيوعى.

وواضح أن هذا المنطق ملىء بالمتناقضات ؛ لأن فرض دكتاتورية طبقة من الطبقات على غيرها، والقضاء على الخصوم بالعنف لا يتفقان مع ما ينادى به الماركسيون من عدالة فى الحقوق، ثم إنه ثبت بالفعل أن الرأسمالية يمكن أن تتعايش مع الشيوعية كما هو الحال فى الوفاق بين السوفييت والأمريكيين، وفى يوغوسلافيا صبغة من الشيوعية تسمح بالتعايش مع الرأسمالية، وهذه بعض صور ما يسمى بالماركسية الجديدة Neo - Marxism، التى ينتهجها الروس بعد ستالين، وينكرها **ماو ـ تسى ـ تونج** وأتباعه ممن يرون أنهم يسيرون على خط (ماركس ـ إنجلز) بكل أمانة.

وواضح من العرض السريع الذى قمنا به أن الماركسية سواء كمذهب فى تفسير التاريخ ، أم فى تغيير قواعد علم الاقتصاد مليئة بالمتناقضات ووجوه الضعف، ولكنها على أى حال حققت ـ بصفتها فلسفة اجتماعية ـ نجاحاً لم تحققه أى فلسفة أخرى مماثلة، ولقيت من كثير من الناس وشعوب الأرض إقبالاً فاق كل تصور، وأصبحت هى نظام الحكم والعمل الوحيد فيها، ويرجع ذلك لأنها أظهرت إلى الوجود الأهمية الكاملة للعمل والعمال، حتى فى البلاد غير الشيوعية قفز العمال إلى الصدارة وشاركوا فى الحكم، وانتقلوا من أجراء إلى أصحاب رأى وقوة وأثر سياسى فعال يتمثل فى أحزاب قوية يسارية أو تميل إلى اليسار، ونقابات ذات قوة سياسية حقيقية. ومن الواضح أنه لولا الإلحاد، والإصرار على إنكار الأديان ومحاربتها، لكان للماركسية نجاح أكبر، ولكن ذلك الإلحاد جزء لا يتجزأ من الآراء الماركسية نفسها. فهى ترى فى الدين أساساً من أسس النظام القديم الذى يجب القضاء عليه، ومع ذلك فقد أدت مبادئ الماركسية إلى تغير حاسم فى الأوضاع الاجتماعية والفكرية للطبقة العاملة، فتطلعت آمال نبهاء العمال إلى أن يستزيدوا من العلم ويدخلوا ضمن التكنولوجيين، وهذا بدوره رفع المستوى الفكرى للعمال فى الدنيا كلها، وأدى بطبيعة الحال إلى ارتفاع المستوى الاجتماعى للأمم كلها.

وجدير بالملاحظة أن معظم الفضل فى النجاح الذى حققته الماركسية يرجع إلى اعتناق الثوار الروس إياها، وخاصة **فلاديمير أوليانوفيتش** المعروف باسم **لينين**، فهذا الرجل هو الذى تمكن من أن يحول آراء ماركس إلى ثورة دموية، حولت إمبراطورية من أضخم دول الأرض إلى دولة شيوعية، ومركز لنشر الشيوعية فى العالم، ولولا لينين لما كان لماركس هذا الأثر كله فى التاريخ.

ومن الآراء التى استحدثها كارل ماركس وأتباعه قولهم إن العمل سلعة فى السوق تباع وتشترى، وهذه السلعة هى بضاعة العامل، وهو عندما يفاوض صاحب العمل منفرداً فإنه لا يستطيع أن يحصل على الثمن العادل لسلعته وهى العمل؛ لأنه ضعيف أمام رأس المال وأصحابه، وهم يستطيعون عقابه وفصله من

العمل، بل العصف به دون رحمة، ولا سبيل للعامل فى هذه الحالة إلا أن يدخل الميدان ضمن جماعة ضخمة متحدة تساوم على حقوقها مساومة جماعية؛ لتستطيع الحصول على ما ترى أنه حقوقها بقوة الجماعة ، وتلجأ فى سبيل ذلك إلى الإضراب الجماعى، أو التباطؤ فى العمل، أو احتلال المصنع لإرغام أصحابه على الاستجابة، وعندما انتقلت زعامة الحركة إلى **لينين** (اسمه الحقيقى: فلاديمير إيليتش أوليانوفيتش ١٨٧٠ ـ ١٩٢٤م) أدخل عنصر العنف فى صراع الطبقات، وقد سبقه إلى ذلك شيوعى فوضوى مهووس يسمى نيتشاييف، وهذا الرجل كان يقول إنك لا تستطيع أن تقيم بناء جديداً إلا على أرض نظيفة، فلابد من إزالة النظام القائم كله بالعنف البالغ، أو إحراقه لتخلو الأرض؛ حتى يمكن إقامة البناء الجديد، أو زراعة النبات الجديد. ثم تطرف نيتشاييف فى آرائه؛ فذهب إلى أن إقامة النظام الاجتماعى الجديد غير ممكنة إلا على أساس إبادة أهل النظام القائم ومنشآته جميعاً، وسميت هذه النظرية بالنيهيليزموس Nihilismus أى: اللاشيئية، أو العدمية، وهى نظرية دموية مخربة كلفت نيتشاييف حياته، فسجنته السلطات القيصرية حتى الموت، وكان ممن آمن بهذه النظرية أخ أكبر للينين يسمى ألكساندر، وقد قبض عليه وأعدم، ودخل لينين ميدان الصراع محملاً بالأحقاد والشوق إلى الدماء.. وقد اشتهر فى حياته قبل ثورة أكتوبر ١٩١٧م فى روسيا بالعنف مع خصومه ـ حتى الشيوعيين منهم ـ وسوء الأدب والاستطالة عليهم واحتقارهم، وعندما أباح له الألمان العودة إلى روسيا، ونقلوه فى قطار محكم الإغلاق من منفاه فى زيوريخ إلى روسيا دخل الميدان كالوحش الضارى ، فلم يكتف بهزيمة خصومه بأسوأ الأساليب وأعنفها وأبعدها عن الإنسانية، بل لجأ إلى الإبادة ، فأباد فى سنوات حكمه القليلة ـ التى لا تزيد على خمس سنوات ـ طبقات كاملة ، وأغرق روسيا كلها فى الدماء ، وبعد موته واصل سياسة الإبادة **جوزيف ستالين**، وأساليب لينين هذه هى التى تسمى فى مجموعها باللينينية الماركسية Leninist Marxism.

جورجى فالنتينوفيش بليخانوف : Georgi Valentinovich Plekhanov
(١٨٥٦ ـ ١٩١٨م)

والحتمية التاريخية :

كان بليخانوف من أكابر المفكرين الروس الذين تأثروا بآراء كارل ماركس وانضموا إلى جماعة القائلين بالاشتراكية العلمية Scientific Socialism ، وقد تأثر تأثراً عميقاً بكارل ماركس ، وقال بالحتمية التاريخية ، ولكنه اختلف مع كارل ماركس حول موضوع استخدام الإرهاب كوسيلة تستطيع بها أقلية اشتراكية أو شيوعية الوصول إلى الحكم ، وتطبيق النظرية الماركسية فى إقامة نظام للحكم جديد ، وعلى أساس هذا النظام الجديد يمكن توجيه التاريخ كله وجهة اشتراكية أو شيوعية ، يكون العمال فيها هم القوة الأساسية التى تحكم سير الأحداث ، فقد دعا ماركس ـ كما رأينا ـ إلى تكوين جماعة من الثوريين المؤمنين بأن العمل هو القيمة الوحيدة التى لها وزن وقيمة ، وهذه الجماعة من الثوريين هى التى تقوم بالدعوة وتكسب الأنصار وتُجنِّد العمال وتسيِّرهم لإنشاء النظام الجديد عن طريق الثورة العامة، أما بليخانوف ، فكان لا يرى ضرورة لإنشاء هذه الجماعة من المفكرين المدبرين، بل كان رأيه أن نظرية العمل هى التى ينبغى أن تجمع العمّال وتدفعهم إلى القيام بالثورة بأنفسهم، وقد كان بطبعه ينفر مما يسمى بالأقلية المفكرة ، أو الصفوة ، أو الإيليت Elite التى ترسم وتخطط وتقود الجماهير؛ لأن ذلك كان لابد أن يؤدى ـ فى رأيه ـ إلى استبداد تلك الأقلية ورئيسها بالسلطان والحكم، وكان يرى عوضاً عن ذلك أن يتكون حزب يمثل الطبقة العاملة، ويجمع أفرادها وجماعاتها ، ويخوض بها المعركة ، ويقيم دولة البروليتاريا أو العاملين .

وعلى هذا الأساس أنشأ جماعة سرية تسمى « الأرض والحرية » (زَمْليا أى فُوليا) لكنه وجد أن جماعته تلك تتجه رغماً عنه إلى الوصول إلى السلطة عن طريق الإرهاب ، بدلاً من العمل الجماعى المنظم ، فتركها ، وأنشأ فى سنة ١٨٧٩م جماعة أخرى تسمى: إعادة التوزيع الأسود (تشيرنى بيريدلى)، ثم ترك روسيا كلها، وهاجر إلى وسط أوربا، وكان وسط أوربا ـ النمسا والمجر وشرقى

ألمانيا وسويسرا ـ إذ ذاك ميداناً مضطرباً لشتى الآراء السياسية ؛ لأن أحوال العمال فى أوربا كلها كانت سيئة جداً والفقر كان عاماً، والطبقة العاملة مطحونة فعلاً؛ لأن المصانع كانت كثيرة، وكلها كانت ملكاً للرأسماليين ، وكان العمال لا ينالون إلا أزهد الأجور، وهنا ـ وفى ذلك الوسط الحافل بالتعاسة ـ سلَّم بليخانوف بما كان كارل ماركس يقوله عن : الاشتراكية القائمة على العلم Wisseschaftliche Sozialismus.

وفى سنة ١٨٨٣م أنشأ فى جنيف بسويسرا جماعة تسمى: تحرير العمل (أوزفو بوزدينى ترودا) وكانت هذه كلها جماعات من الروس المهاجرين من روسيا هرباً من استبداد القياصرة وظلمهم، وفى هذه الجمعية حاول أن ينشر رأيه الخاص بإنكار الجماعات الإرهابية التى تستولى على الحكم بالقوة عن طريق قيادة الجماهير والتأثير عليها ودفعها إلى الثورة، وبدلاً من ذلك دعا إلى إنشاء حزب اشتراكى ديمقراطى مناضل Militant ينظم جهود الشعب الروسى كله فى صراعه مع الطبقة الإقطاعية المستبدة.

وقد ألف بليخانوف فى هذا المعنى كتباً كثيرة، تقوم كلها على الجدل الماركسى والمادية التاريخية التى تقول إن التاريخ لا توجهه الأفكار والآراء والنظريات، وإنما العوامل المادية، وأهمها الفقر والسعى للتخلص منه؛ لأن الماديات ـ لا المعنويات ـ هى المحرك الحقيقى لنشاط البشر، وهى الأساس الذى يمكن أن تقوم عليه فلسفة للحياة نافعة وقابلة للتطبيق، وقد لقيت آراء بليخانوف قبولاً، واجتذبت دعوته ناساً كثيرين، وجعل يدعو إلى إنشاء الحزب العمالى الاشتراكى الديمقراطى. وكان لينين قد سبقه إلى ذلك، وغطى عليه بنشاطه الواسع وذكائه الوقاد، فانضم بليخانوف إليه ونشر مقالات فى مجلة القبس (إسكرا) التى أنشأها لينين لسان حال للحزب الشيوعى، وفى الاجتماع التالى لذلك الحزب فى زيوريخ كان بليخانوف إلى جانب لينين ضد جماعة المنشفيك، أى: جماعة الأقلية، وكانت هذه الجماعة قد قامت بالثورة فى روسيا، وأَبعدت القيصر ورجاله عن الحكم، وتصدى لهم لينين من الخارج بجماعته التى سماها البولشفيك، أى:الأكثرية. ومع أن آراء بليخانوف فى مسألة الوصول إلى

الحكم كانت تختلف عن آراء لينين ، فقد انطوى تحت جناحه، ولم ير بأساً فى أن تتولى الصفوة الشيوعية قيادة قوة ضاربة تصل بها إلى الحكم، وتفرض الثورة من أعلى حتى لو كانت الجماهير غير مستعدة لقبول الثورة.

وفى أثناء الأزمة الحادة التى وقعت فى سنتى (١٩٠٥و١٩٠٦م) بين حزب الأقلية الذى كان ينادى بالاشتراكية الديمقراطية التى تصل إلى الحكم عن طريق الانتخاب الحر، وحزب الأكثرية الذى كان يقوده لينين ويدعو إلى الاستيلاء على الحكم بالعنف والإرهاب، وقيادة ثورة الجماهير بعد ذلك. كان بليخانوف يدعو إلى التفاهم مع الأوساط الأحرار أو البورجوازيين اللبراليين، ولكن آراءه لم تلق نجاحاً أمام قوة لينين. وعندما عاد بليخانوف إلى روسيا سنة ١٩١٧م دعا إلى إيقاف الثورة الاشتراكية مؤقتاً، وتوجيه الجهود لكسب الحرب مع ألمانيا، ولكن الناس كانوا قد سئموا الحرب بسبب ما عانوه من ويلاتها فلم يصغ إليه منهم أحد.

وفى سنة ١٩١٧م عندما أقدم بليخانوف على مقاومة الحركة الماركسية اللينينية وقال: «إن العنف مناقض للمبادئ الماركسية» تعرض للأذى على أيدى نفر من البحارة، واضطر إلى الهرب إلى فنلندا، حيث مات وحيداً منهزماً بائساً فى بلدة صغيرة تسمى فينيريجوكى فى ٣٠ مايو ١٩١٨م، وبليخانوف روسى ولد من أبوين ميسورين فى جودالوفسكى، فى مقاطعة تامبوف، فى ٢٩ نوفمبر ١٨٥٦م، ومال من سنوات دراسته الباكرة إلى الآراء التى كانت تدعو إلى نقل الحكم من القيصرية المستبدة إلى جماهير الروس. وبرغم عدم توفيقه فى الصراع السياسى مع لينين ، فإن آراءه فى مادية التاريخ، وحتمية انتقال الحكم إلى الطبقات العاملة ظلت مؤثرة فى الفكر الاشتراكى والشيوعى، وله كتابان مشهوران يعتبران الآن من المؤلفات الأساسية فى فهم الفكر التاريخى على أساس المادية والجدلية الماركسية، ونظرية حتمية التطور التاريخى، الأول «فى الدفاع عن المادية»، وقد نشرت ترجمته الإنجليزية سنة ١٩٤٧م، والثانى «أثر الفرد فى التاريخ» وقد نشرت ترجمته الإنجليزية سنة ١٩٤٦م. وهو يرى فى كتابيه هذين: **أن الفرد لا يقود المجتمع ولا يصنع التاريخ ، بل إن حتمية المنطق التاريخى هى التى توجد الرجال المناسبين للقيادة فى الوقت المناسب .**

وبليخانوف فى هذين الكتابين مؤرخ منطقى يعرف الكثير من التاريخ، وبـ ـ على التاريخ الأوربى خاصة ـ آراءه تلك، على الرغم من أن الشيوعية اللينينيه الرسمية لا تعترف به أو بكتبه أو بآرائه، إلا أن معظم المؤرخين المعاصرين الذين تتجه أفكارهم نحو مادية التاريخ وحتمية التغيرات الكبرى فى مسار التاريخ يبدون نحوه احتراماً كبيراً؛ لأنه ثورى عالم، أو عالم أكثر منه ثورياً، بخلاف لينين الذى كان ثورياً أولاً، ثم حاكماً مستبداً غاشماً، ومنظماً ماهراً فيما بعد.

أثر الفكر الماركسى فى مسار علم التاريخ :

حدث أكبر تطور حاسم فى مسار علم التاريخ عند الغربيين بعد أيام الرومان، من أوائل القرن المسيحى الثالث بعد الميلاد على أيدى الرهبان، فهؤلاء استحدثوا كتابة الحوليات المنظمة، أو التراجم القائمة بذاتها، أو أخبار القديسين وتراجم حياتهم، أو أخبار أمم الجرمان وما إلى ذلك. وكل هذا كان يصاغ فى أسلوب سقيم ركيك جاف، فلا تجد فيها إلا ذكر الحوادث جامدة دون حرص على تسلسل أو منطقية تاريخية، وكلها مكتوبة فى لاتينية سقيمة، وكل ما فيها صادر عن فكر ضعيف، وإن كانت مخطوطاتها جيدة ومتقنة فى الغالبَ، وهذه الحوليات Annali ،أو المدونات Cronica، والتراجم أو تواريخ الحياة مثل Vita Caroli، وهى حياة شارلمان، واسمه باللاتينية Carulus Magnus، وبالفرنسية Charlemagne ، ومن ذخائر التراث التاريخى المصرى كتاب Vita Antonü، وهى حياة الراهب المصرى أنطونيوس الذى عاش فى القرن الثالث المسيحى، وقد تسمى التواريخ العامة من هذه المدونات باسم أعمال Gesta، ومن أكبر أمثلتها : أعمال الفرنجة Gesta Francorum، وأعمال القوط Gesta Gotharum، وما إلى ذلك، ثم جاءت النهضة الأوربية، وجاء معها تطور جديد فى علم التاريخ عند الغربيين، وهى كتب تاريخ الرسل دون اعتماد كبير على الأصول والمراجع، ثم جاءت مدرسة الوثائقيين التى عكفت على دراسة الوثائق بشتى أنواعها ونشرها وعمل الفهارس لها، ويتجلى ذلك فى أعمال جماعة البولانديين Bollandists

وقد ألف **مابيون** Mabillon أول كتاب فى قواعد النشر والتحقيق ، وشمل أوربا كلها نشاط واسع فى جمع الوثائق والنصوص وفهرستها فى أدلة أو فهارس. وكان هذا الجمع وما يتصل به من نشر وفهرسة أساس قيام علم التاريخ الموثق الذى سار مساره فى الغرب، وارتقت بفضله أساليب التحقيق التاريخى والدراسة التاريخية التى مرت بدَوْرِها فى أدوار ومراحل تحدثنا عن أهمها فى هذا الكتاب.

ولكن حركة من تلك الحركات لم يكن لها من الأثر فى تطوير علم التاريخ مثل ما كان للفكر الماركسى بشتى مدارسه واتجاهاته، فقد تغيرت النظرة إلى تاريخ البشر ومساره تغيراً حاسماً، وأخذت مسائل الاقتصاد وصراع الطبقات والأجناس تحتل المكان الأول من اهتمام أهل التاريخ، وإذا كان كبار الرجال وأعمالهم، وقيام الدول والفتوح والحروب وأعمال القادة، هى المحاور الرئيسية التى دارت حولها المؤلفات التاريخية إلى ذلك الحين، فقد أصبح العمل والعمال وصراع الطبقات ومستوى المعيشة ومطالب الجماهير وطموحاتها، هى المحاور الرئيسية الجديدة التى يدور حولها التاريخ كله، ومعنى ذلك أن علم التاريخ كله انقلب رأساً على عقب، وأصبح الرجل العادى هو محور التاريخ، وأصبحت حياته وأسلوب معيشته ومستواها وأحوالها هى موضع اهتمام المؤرخين، وكذلك انتقلت قيادة التاريخ من الأبطال والملوك ومنشئى الدول إلى الجماهير، أى أن علم التاريخ انتقل من عالم الثقافة الصرفة والأدب إلى حياة الناس، ونزل المؤرخون من مستواهم الفكرى الرفيع إلى حياة الناس، ويكفى أن ننظر فى المؤلفات التاريخية التى كتبها رجال ذوو صوت عال فى عصر **الأنوار**[1] من أمثال: **روسو، وفولتير، وكوندورسيه، ومونتسكيو**[2] لنرى كيف أن آراء عظماء الرجال والأفكار العامة والنظريات هى مدار التأليف التاريخى.. حتى **سان سيمون**

---

(١) كما يلى على الترتيب بالإنجليزية والفرنسية والألمانية :

Die Aufklaerung - L'Age des Lumières- The Age of Enlightenment

(٢) انظر عن هؤلاء جميعاً وغيرهم كتابنا : الحضارة . الكويت ، سلسلة عالم المعرفة ، مجلد (١) سنة ١٩٧٨م .

الذى يعتبر أول مبشر بالفكر الاشتراكى فى تاريخ الفكر العالمى لم يجعل فى كتاباته مكاناً يذكر لأصاغر الناس وأواسطهم من العمال والجنود والبحارة وأهل الخدمة فى المرافق والحرفيين كباراً وصغاراً، ويصل هذا الطراز من التأليف فى التاريخ إلى ذروته عند **فريدريخ هيجل**. وقد كان هيجل يحسب أن تطور البشر قد وصل فى عصره إلى أرفع درجاته، وأن الحضارة وصلت ذروتها، وأن النظم السياسية والاجتماعية قد وصلت إلى أقصى ما يمكن أن تصل إليه، ولهذا فقد نسب إليه ـ كما قلنا ـ أنه قال: «عندى ينتهى التاريخ» وقد شككنا فى صحة هذا القول وإن كان صحيحاً فى مدلوله، وفى نظرة هيجل لنفسه وعصره ونظرة معاصريه له. فقد كان الناس ينظرون إلى هيجل نظرتهم إلى أعظم مفكر ظهر فى التاريخ، وكانت محاضراته فى جامعة برلين حدثاً فى تاريخ الفكر فى القرن التاسع عشر، وتحس بهذا التعظيم فى غير حد لهيجل وفكره عندما تقرأ ما كتب معاصروه ومن جاء بعده بقليل مثل **فريدريخ شيللر** الشاعر الألمانى الكبير، وله مشاركات ذات قيمة كبيرة فى علم التاريخ، ثم جاء **كارل ماركس** فقلب ذلك كله رأساً على عقب، ونقل اهتمام الناس من الملوك والأبطال والإمبراطوريات إلى اهتمامات الإنسان العادى وجماهير الناس وحاجتها، وقال هو ومن طوروا فكره بعده إن صانع التاريخ الحقيقى وأساس الحضارات كلها هو الإنسان العامل فى الأرض والحرفة اليدوية أو التعليمية، وعامل المنجم والميكانيكى وسائق القطار، وخدم المرافق، ومَنْ إليهم.

وهاجم الفكر الماركسى أيضاً من سمَّاهم البورجوازيين Les Bourgeois والبرجوازى: هو ساكن المدينة ذات الأبراج أو Les Bourgs وفى الإنجليزية Tie Boroughs، وفى الألمانية Die Buergern، وهم يقابلون فى مفهومنا العربى مياسير الناس من تجار صغار أو كبار، وأصحاب مصانع صغيرة أو كبيرة، ووسطاء ماليين وصيارفة، وأصحاب مراكب نقل الناس والبضائع وما إلى هؤلاء، فقد اعتبرهم ماركس جميعاً وسطاء أو دخلاء بين المنتج الأصلى للعمل أو المحصول، وهو الصانع والزارع والعامل بيده عموماً فى ناحية، والمستهلك فى

الناحية الأخرى، ويطلق على هؤلاء جميعاً تسمية واحدة، وهى أنهم وسطاء بينيين Zwischen Händler، ومن المعروف أن طبقة البرجوازيين نشأت عند قيام المدن فى أوربا بعد اندثارها، فقد كان العالم الغربى فى العصرين ـ الإغريقى والرومانى ـ عالم مدن، كل شىء فيه يدور فى المدن، أما الزراع فكانوا فى أدنى طبقات المجتمع، يليهم العمال اليدويون، وفى أوج العصور الوسطى ـ وهو القرن التاسع الميلادى ـ كان المجتمع كله قد تحول إلى مجتمع زراعى مقفل Société Rurale Fermée يسيطر الملوك والأشراف ورجال الدين فيه على كل شىء، وبقية الناس أجراء أو أقنان، يخدمون أولئك السادة. ثم اجتمعت جماعات الحرفيين من صناع وتجار، واشترت من الملوك والأشراف حقوق تعمير المدن القديمة أو إنشاء مدن جديدة Villeneuves أو New towns، ودفعوا للشريف أو المالك صاحب الأرض مالاً على أن يتركهم أحراراً فى مدنهم يمارسون مهنهم، ويصنعون مصنوعاتهم ويبيعونها، أو يجلبون بضائعهم كيف شاءوا. وفى أثناء الحروب الصليبية عندما اشتدت حاجة الأشراف والنبلاء لتجهيز الحملات والخروج فيها زادت هذه الحركة، واشترى العمال والصناع حقوقاً جدِيدة مثل تحصين مدنهم وتقويتها بالأبراج، وسُمّى الساكنون فيها بساكنى المدن المحصنة بالأبراج، أو البورجوازيين؛ ونتيجة لذلك انتعشت المدن من جديد، وانتعشت معها الصناعات والتجارات، وحصل أهل المدن على أرباح واسعة، فأنشأوا القوات العسكرية الخاصة بهم، ووضعوا التشريعات الحرفية التى تقوم على العمل، وحقوق العمال وأسعار الخامات والبضائع وأساليب التجارة وقواعد التعامل التجارى، وهذا هو ميلاد التشريعات الأوربية الحرفية العملية التى تختلف عن التشريعات القديمة والمسيحية التى كانت سائدة إلى ذلك الحين، وأصولها رومانية عَدَّلها رجال الدين بما يناسب الفكر المسيحى. وفى الصراع بين الأشراف والنبلاء وقف الملوك إلى جانب المدن وأهلها؛ لأن كلا الجانبين ـ الملوك والحرفيين ـ كانا راغبين فى التخلص من الأشراف المنافسين للملوك فى السلطان من ناحية، والذين يعيشون من أتاوات وحقوق إقطاعية على أتباعهم، وشيئاً فشيئاً اتسعت المدن وزاد ثراؤها، وزادت أهميتها فى الحياة الأوربية،

وتحول المجتمع من زراعى مقفل إلى مجتمع صناعى تجارى منتج مفتوح ، وعندما ضعف رجال الإقطاع، وأصبحوا بالفعل خاضعين للملوك ـ ولو بالاسم ـ انتقلت الأهمية إلى أهل المدن أو البورجوازيين، وقد انقسموا إلى طائفتين: أصحاب المصانع والمتاجر، وكان معظمها صغيراً، وهؤلاء هم المياسير، أو La Haute Bourgeosie والمساتير أو La Petite Bourgeosie، وعندما قامت النهضة الصناعية وامتد نطاق الاستعمار وانصبت فى أوربا الأموال أثرى مياسير أهل المدن من أصحاب مصانع ومتاجر وأصحاب سفن ودور صناعة ، أى: مصانع بناء السفن ، وبلغوا مبالغ كبرى من الثراء، وأصبحوا رأسماليين كباراً أو صغاراً، ولكنهم ظلوا فى عداد البورجوازيين، وتميز من بينهم أصحاب رءوس الأموال الكبيرة الذين زادت أموالهم، واشتروا الضياع، وابتنوا القصور، وأثثوها بفاخر الرياش، واقتنوا المركبات والخيول،وأنشأوا البنوك.

وهؤلاء هم الذين يطلق عليهم اسم الرأسماليين The Capitalists. وقد نشأت فى أوساط المياسير والرأسماليين هؤلاء أخلاقيات ميزتهم عن غيرهم أظهرها الأنانية والقسوة على الفقراء والعاملين، والاتجاه إلى بخس أجور من يعمل عندهم أو أكل حقوقهم أكلاً، وعدم العناية بمعاشهم أو صحتهم وحرمانهم من كل الحقوق، هذا إلى جانب الرياء الاجتماعى والتظاهر بالفضائل، فهم يلمون بالكنائس أيام الآحاد، ويضعون النقود فى صناديق النذور حتى يقال إنهم أتقياء، وهم يجاملون كبار رجال الدين، ويساهمون بالمال الكثير فى بناء الكنائس، طلباً للمزيد من الغنى، والعيب عندهم هو ما يراه الناس، أما ما لا يراه الناس فلا عيب فيه، ومن ثم فهم أهل تظاهر ونفاق وولع بالمظاهر، أما فى الحقيقة فغالبيتهم منافقون أنانيون لا ينفرون من الرذيلة إلا رئاء الناس، ومعظمهم كانوا يعتبرون النساء العاملات فى بيوتهم محظيات، ويخلون بهن بعلم زوجاتهم أو خفية عنهن، ولم تكن نساؤهم أفضل فى هذه الناحية. وهذا لا يمنع من القول أنه كان فيهم الصالحون وأهل الخير، ولكن تلك هى السمات البارزة لكبار المياسير والرأسماليين الذين اقتنوا الضياع، وساموا من يعمل فى متاجرهم ومصانعهم الخسف والظلم والابتزاز، وكانت الدول فى حاجة إلى هؤلاء الرأسماليين،

فأصبح التشريع فى خدمتهم، لكى يستدين منهم الملوك والحكومات لتمويل حروبها وأعمالها الاستعمارية . وفى منتصف القرن الثامن عشر كانت كبار المدن قد تحولت إلى قلاع صناعية؛ لأن المستعمرين حطموا كل الصناعات التقليدية التى اعتمد عليها أهل المستعمرات طوال تاريخهم قبل الاستعمار، لكى يفرضوا منتجاتهم ويبيعوها بالسعر الذى يريدون، فاتسعت أسواقهم، وزادت ثرواتهم، وتضخمت رءوس أموالهم، وصار لهم سلطان حقيقى على الدول والسياسات بفضل رءوس الأموال، وفى نفس الوقت اشتدت قسوتهم على العاملين فى مزارعهم ومصانعهم فى بلادهم فى أوربا وأمريكا، أو فى المستعمرات، فزاد شقاء العاملين وانتشرت التعاسة والأمراض بينهم، ووقع المساكين فريسة المرابين وازدادوا بؤساً، وتلك هى الظروف التى لفتت أنظار كارل ماركس وأمثاله ممن أحسوا أن مسار الأمور فى هذا الاتجاه غير سليم، وأن رأس المال ينبغى ألاّ يسيطر على البشر، ويخنق كل ما هو إنسانى وعادل، فنشأت الأفكار المعادية لرأس المال التى تُشْعِر بالعطف على الطبقات العاملة التعيسة. وقد كثرت كتابات الإنسانيين من أمثال **جيريمى بانتام**، **وجون ستيوارت مل** عن تعاسة هذه الطبقات وضرورة إنصافها ومعاملتها معاملة إنسانية ، ولكن كارل ماركس تناولها تناولاً علمياً وفلسفياً، وكان أساس دراسة ماركس فلسفياً، ودرجته الجامعية كانت فى الفلسفة ، فاتجه ذهنه فى الكتابات التى كتبها فى شبابه Jugend Schriften إلى بحث موضوع رأس المال ونظم الاقتصاد، على أساس أن العمل هو أساس كل قيمة مادية ، فقطعة الحديد لا تساوى إلا شيئاً زهيداً، فإذا صنعت أو شكلت على هيئة أداة نافعة زادت قيمتها أضعافاً ، وهذه الزيادة فى القيمة هى قيمة العمل المضاف إليها ، أى أن عمل العامل هو الذى يعطى المصنوعات قيمتها، ويكون العمل فى هذه الحالة سلعة العامل لتضاف إلى سعر المصنوع، وتلك هى الأفكار التى طورها كارل ماركس وصاغها فى قالب نظرية علمية منطقية هى التى بسطها فى كتاب «رأس المال»، واشترك مع صاحبه فريدريخ إنجلز فى تحويلها إلى نظرية سياسية تقول: إن العمال ينبغى أن يشاركوا فى الحكم، ويكون لهم الحق فى الاشتراك فى إدارة المصنع والحصول على نصيبهم العادل من الربح؛ ونتيجة

لذلك انقلب الفكر الاقتصادى والسياسى فى العالم كله على النحو الذى بيناه آنفًا ، وأصبحت للتاريخ الإنسانى محاور جديدة ، ومصطلحات جديدة ، مثل صراع الطبقات Klassenkampf . والحقيقة أن ماركس أراد ببيانه المشهور أن يجعل الصراع السياسى صراعاً رأسياً لا أفقياً، فلا تحارب دولة دولة أخرى، وإنما يتحد العمال جميعاً فى شتى البلاد ويحاربون الطبقات المستغلة، وهذه كلها أفكار ونظريات بالغة الخطورة قام عليها مجتمع جديد أو مجتمعات جديدة ، وقد تعددت هنا المذاهب بين الاعتدال الذى يسعى إلى إحداث التغيير عن طريق الإقناع والتدرج، والعنف الذى يتجه إلى القضاء على المجتمعات القائمة لإنشاء مجتمعات جديدة مكانها ، كما حدث فى روسيا وغيرها من البلاد الشيوعية، ومن هنا نشأت مذاهب الاشتراكية Socialism بشتى نظرياتها وآرائها.

وفى يومنا هذا دخل الفكر الاشتراكى الاقتصادى والسياسى فى كل بلاد الدنيا، بل فى أشدها تمسكاً بالرأسمالية ورأس المال، مثل: إنجلترا والولايات المتحدة، بل إن أعداء الشيوعية قالوا إنهم اشتراكيون أو يزعمون أنهم كذلك، فالنازيون اسمهم مشتق من اسم حزبهم Nazional Socialistische Partei، والفاشيون أصحاب موسولينى أخذوا اسمهم Facisti ، من لفظ العمل، فهم أنصار العمل والعمال، وقد أبيدت فى البلاد الشيوعية الطبقة البورجوازية عالية وسفلى، أى: مياسير ومساتير، وأزيلت البنوك الفردية، وبنى المجتمع كله على أساس اشتراكى أو شيوعى ، ومعنى ذلك أن الأوضاع السياسية فى العالم كله تغيرت وقام عصر جديد، وتطور علم التاريخ نفسه، وتغيرت اهتمامات المؤرخين فأصبحوا جميعاً يكتبون فى العدالة الاجتماعية، والمساواة الفعلية بين الناس فى الحقوق والواجبات، ونشأت نتيجة لذلك مدارس جديدة من المؤرخين ومصطلح جديد فى علم التاريخ. ولتصوير هذا الانقلاب الحاسم فى اتجاه تاريخ البشر وتطور علم التاريخ بما يتماشى مع هذا الانقلاب كان أستاذنا كارل ماير ـ أستاذ التاريخ العام فى جامعة زيوريخ ـ يأتى بمثلث كبير ويثبته على السبورة واضعاً المسمار فى رأس المثلث ويقول: «هنا فى رأس المثلث كان المؤرخون المثاليون وصاحبهم هيجل ، وكانوا يحسبون أنفسهم قمة الفكر العالمى، ولهذا

قال هيجل: «**عندى ينتهى التاريخ**»، ثم ينزع المثلث ويثبته فى السبورة وقاعدته إلى أعلى ورأسه إلى أسفل ويقول مشيراً إلى القاعدة : «هنا وقف كارل ماركس وأصحابه يقولون لهيجل: عندك ينتهى تاريخ العلم ، وعندنا يبدأ التاريخ».

والحق أن تاريخ البشر تأثر تأثراً عميقاً بالتحول الاشتراكى العظيم الذى شمل العالم كله أفقياً ورأسياً ، فأصبحت العدالة الاجتماعية وما يتصل بها أساس الفكر السياسى كله ، ولم يعد أحد يناقش فى حقوق العاملين ونصيبهم فى الأرباح وثمرات الإنتاج ومشاركتهم الواجبة فى الحكم ، بل تأثرت التشريعات فى بلاد العالم كله بآراء الاشتراكيين ونظرياتهم فى العمل والعمالة ، وكانت لذلك كله انعكاسات سياسية خطيرة لم تسلم منها أشد البلاد تمسكاً بالنظام الرأسمالى ، ففى إنجلترا مثلاً نشأ حزب العمل ، ونحن نخطئ بتسميته فى العربية حزب العمال مع أنه حزب العمل Labour Party وهى تسمية أدق ؛ لأن إعطاء الأهمية للعمل أصح من إعطائها للعامل ، فقد يكون الإنسان عاملاً غير عامل ، ثم إن لفظ (العمال) اقترن فى الأذهان بالعمال اليدويين والحرفيين ، مع أن كل إنسان يعمل فهو عامل ، سواء أكان عمله يدوياً أم ذهنياً ، وفى البلاد الرأسمالية أصلاً التى قامت فيها أحزاب اشتراكية وصلت للحكم مثل فرنسا وإسبانيا اتسع مفهوم العمال فلم يعد يقتصر على اليدويين ، بل شمل كل المنتجين بما فيهم الأطباء والمهندسون والمفكرون والأساتذة والفنانون .

وكانت لذلك كله انعكاساته على التاريخ ودراساته ، فاحتلت الأحوال الاقتصادية مكاناً صدراً فى العوامل التى تحرك التاريخ . وكان ذلك خيراً للتاريخ والمؤرخين ، فأما التاريخ فقد أصبح أكثر واقعية مما كان عليه قبلاً ، وأصبحنا إذا كتبنا تاريخ أى بلد أو عصر وجهنا اهتمامنا الأول للأحوال الاقتصادية، وأحوال الصناع والزراع والتجار ومن إليهم ، والتفتنا إلى الإنتاج وظروفه ، وهذا بدوره جعل للتاريخ وظيفة أساسية فى ميادين الدراسات الاجتماعية ، وانضافت إلى المؤرخين مطالب جديدة ؛ فأصبح لزاماً على المؤرخ أن يكون له فهم للاقتصاد وشئونه . واحتل كتاب مثل (ثروة الأمم The Wealth of Nations) أهمية كبيرة

بين الكتب الأساسية التى لا يستغنى عن دراستها مؤرخ، ولابد للمؤرخ اليوم من أن يدرس نظريات مالتوس فى العلاقة بين زيادة السكان وزيادة الإنتاج. وعندما نقرأ الآن كتاباً مثل Social History of England الذى ألفه Trevelian ـ وكنا نعتبره أجمل ما كتب فى ميدان التاريخ الاجتماعى ـ فإننا نحس أنه ينقصه عنصر مهم جداً ، وهو عنصر الدراسة الاقتصادية .

حقاً إننا لا نستطيع مجاراة الاشتراكيين والشيوعيين فيما يذهبون إليه من أن عوامل الاقتصاد هى الوحيدة المحركة للتاريخ، وما يتبع ذلك من الازدراء بالفكر واحتقار القيم الإنسانية مثل الحرية الفردية، وحقوق الإنسان، والقول بتضحية الفرد فى سبيل الجماعة، ولكننا أصبحنا نوجه أكبر جانب من اهتمامنا إلى مسائل الاقتصاد وأحوال الناس ومستوى معيشتهم، وغالبية الظاهرين من مؤرخى زماننا هذا يكتبون على أساس توازن لابد منه بين القوى الروحية والإنسانية والعوامل الاقتصادية فى تسيير التاريخ. ولا معنى أبداً لمهاجمة الأديان وأفكارها والزعم بأنها معوقات فى طريق تقدم البشر، فإن للأديان وما يتصل بها من مثاليات أثراً حاسماً فى تكوين الإنسان وتوجيه تاريخه، ويكفى أن نقول إن الثابت اليوم هو أن كل نظريات ماركس وأضرابه قد تحولت إلى أداة لخدمة أهداف رأسمالية للدولة الشيوعية الكبرى وهى الاتحاد السوفييتى، فلا نزاع اليوم فى أن الاتحاد السوفييتى أقوى دولة رأسمالية فى العالم، وإن زعم أولو الأمر فيه أنهم اشتراكيون، وأن رأس المال عندهم مشاع بين المواطنين، وأن العمل هو المقياس الأساسى فى فكرهم السياسى، إذ إن الحقيقة أن الاتحاد السوفييتى نظام استعمارى استغلالى رأسمالى مادى صِرْف لا وزن فيه لأى قيمة إنسانية أو معنوية، ورأس المال هنا تملكه الدولة.

***